الزبير بشير طه
- دار جامعة الخرطوم للنشر، السودان 1995.
- [كتاب يقع في 232 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): التراث النفسي الإسلامي.

❑ ❑ ❑

لقد قدم المؤلف توطئة عامة موجزة عن كتابه في بدايته إضافة لشرحه خطة كتابه في مقدمة الفصل الأول، وهو أسلوب نادر في كتبنا العربية، والمؤلف خير من يوجز كتابه عادة، وهنا سألتزم في الكثير من هذه التوطئة إلا ما أراه بحاجة إلى مزيد من التوضيح، حيث يتألف الكتاب من تسعة أبواب ولكل باب فصول:

يقدم المؤلف خطة كتابه بعدم استطاعة مؤلفه الإحاطة بكافة المباحث النفسية في التراث الإسلامي، غير أنه كان من الضروري بالنسبة إليه تحديد الإسهامات النفسية الرئيسة في هذا التراث وتحليل مفرداتها بمستوى معمق نسبياً، ومن ثم محاكمتها إلى الأدبيات النفسية المعاصرة.

وهنا يذكر المؤلف أنه تنازعه في موضوع كتابه اتجاهان متنافران:

الاتجاه الكمي التجميعي، والاتجاه النوعي التحليلي

وقد آثر المؤلف الموازنة بين الاتجاهين مع تركيزه على الاتجاه الثاني. وتأسيساً على هذا النهج فقد تم انتخاب جملة من الإسهامات التراثية في علم النفس تميزت أولاً بتكامل بنائها النظري، وثانياً بإحالتها الإسلامية فضلاً عن تنوعها.

ولقد تسنى له - كما يذكر المؤلف - معالجة هذه الإسهامات في أوقات ومناسبات مختلفة وبحوث قدمها في مؤتمرات دولية ومحلية أو نشرها في مجلات علمية متخصصة إضافة لمحاضرات ألقاها على طلبته في جامعتي الخرطوم والإمارات العربية المتحدة.

ويذكر المؤلف أن معالجته لهذه الإسهامات النفسية (في التراث الإسلامي) تمت عن طريق قراءآته لها من خلف السطور وتجاوزاً للمفردات الظرفية وتحرياً في المقاصد العلمية التي رمى لها علماء التراث دون إعتساف لدلالات النصوص.

من جهة أخرى يعترف المؤلف بأن التراث الإسلامي مليء بالملاحظات النفسية الذكية، ولكن المؤلف لم يوردها في كتابه لأنها لم ترق - في نظره - إلى مستوى البناء النظري المتكامل. أما ما ورد في الكتاب فقد نظمه بصورة محاكية قدر المستطاع للاتجاهات المعهودة في تنظيم الكتب المدخلية (المدخل إلى علم النفس، أو المدخل إلى أي علم آخر).

أما عن أبواب الكتاب وفصوله فإن:

* الباب الأول الذي تكون من أربعة فصول حاول فيه الباحث أن يستعرض خطة كتابه أولاً:

- ثم مفهوم التراث العلمي العربي الإسلامي: عربي بحكم اللغة التي حملت مضامينه، وإسلامي بحكم أصوله المعرفية واتجاهاته البحثية. وهو نتاج حركة علمية بدأت بنزول القرآن وبلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فيما يتعلق بعلم النفس.
- ثم يتكلم بعد ذلك عن خصائص علم النفس في التراث الإسلامي:

ويرى المؤلف أن علم النفس في التراث الإسلامي لم يكن صنعة واحدة يجتمع عليها أهلها (كالنحو والشعر مثلاً). كما أن الظاهرة الإنسانية تمتد في العقيدة الإسلامية لتتجاوز مرحلة الحياة إلى ما ورائها، مما جعل علم نفس في التراث الإسلامي لا يكتفي بمرحلة الإخصاب إلى الوفاة بل ليبدأ بالإشهاد (عندما أشهد الله سبحانه ذرية بني آدم على خلقه لهم) إلى الحياة الآخرة. كما أن علم النفس في التراث الإسلامي لم يتعد الإنسان في دراسته (أي لم يعمم من الحيوان). كما يتميز هذا العلم التراثي بمقاصده، فما أراده العلماء المسلمون من محاولة لاستكشاف النفس الإنسانية إنما أرادوا به معرفة الله سبحانه. وفي

خصائصه كذلك إصراره على ثنائية التصور كماهية للإنسان وهي قبضة من طين ونفخة من روح.

- ثم ينتقل المؤلف إلى مصادر علم نفس التراث حيث جمعها في سبعة أصناف منها: المطبوعات والمخطوطات وكتب التراجم وطبقات الأعلام ومصنفات الأدب وكتابات المستشرقين ومحاضر المؤتمرات التراثية وإصدارات هيئات إحياء التراث.

* وجاء الباب الثاني ليستعرض الأسس العصبية للسلوك، حيث ركز المؤلف على الرازي وابن سينا بشكل خاص في تشريح وفسلجة الجهاز العصبي بشقيه المركزي والطرفي. ثم قدم تحليلاً عن نظرية ابن سينا في النقل العصبي مبيناً مفارقتها للتقليد (الجاليني) الذي كان سائداً حينئذ. وقد قدم الباحث تحليلاً للمبادرات الأصلية لعلماء التراث حيث تصدوا لقضية الأسس العصبية للوظائف النفسية والتي اعتبرها المؤلف الأساس العلمي لما يسمى الآن بعلم النفس الفيزيولوجي.

* أما الباب الثالث فقد تطرق إلى النمو النفسي مركزاً على النمو العقلي، حيث عقد مقارنة بين ابن طفيل (التراث) في قصته (حي ابن يقضان)(*) وجان بياجيه (علم النفس المعاصر) في مراحل وقوانين النمو مفسراً أوجه الشبه والخلاف بينهما.

وكما كانت قصة (حي) قصة نمو طفل فاقد الحيلة ولكنه عارف بالله فإن الباحث يراها - وكل منصف نفسي يراها كذلك - أطروحة متكاملة في النمو النفسي بدون شك. حيث يبدأ ابن طفيل بالخلق (خلق التراب، خلق آدم) ثم الكيفية التي حاول بها (حي) فهم عالمه المحسوس ولإكتسابه التدريجي لبعض

(*) قصة حي ابن يقظان تتكلم عن طفل نشأ وحيداً في جزيرة غير مأهولة، تبنته ظبية، فوفرت له حاجاته الجسمية والوجدانية وحمته من الهلاك. يترعرع وينمو إدراكه في سبعة أدوار معرفية تنتهي به إلى مشاهدات. ثم يأت شخص آخر إلى الجزيرة (إسال) بعد إن نفاه قومه بسبب عجزه عن هدايتهم فيتفق مع (حي) على الذهاب لهم، ثم يفشلا في هدايتهم ويعودا إلى الجزيرة لعبادة الله بها حتى يأتيهما اليقين.

العمليات الذهنية من خلال الخبرات والتجارب العيانية، ثم مفارقته للمحسوس وبداية إشرافه على تخوم العالم العقلي وقدرته على معالجة القضايا الإفتراضية بصورة تجريدية استنباطية، ثم ينتهي الأمر (بحي) إلى المشاهدات الروحية.

ويرى المؤلف أن هذه القصة نظرية متكاملة عن النمو العقلي تتشابه كثيراً إلى حد التطابق أحياناً مع ما وصلت إليه القناعات النفسية المعاصرة التي يرجع فضل صياغتها إلى جان بياجيه.

* أما الباب الرابع فيتكلم عن الإدراك الحسي كما تبدت في التراث مع التركيز المطول على إسهامات الحسن ابن الهيثم من حيث تشريحه للعين وهندستها البايوفيزيائية وعلاقة ذلك بإدراك البعد والحجم والوضع ثم قوانين البصر والخداعات البصرية والسبق (الهيثمي) في صياغة بعض القوانين الإدراكية مثل قانون (إيميرت) وقانون الزاوية البصرية.

* والذاكرة والوظائف الذهنية هي مادة الباب الخامس، حيث يعرض فيه المؤلف إسهامات الفارابي وابن سينا والغزالي في الوظائف الذهنية، مع تبيان أن نموذج الذاكرة الثلاثي الذي يشكل ناتج حركة البحث التجريبي المعاصرة كان نموذجاً مألوفاً لدى علماء التراث الإسلامي. كما جاء الباب الخامس على توصيف العمليات الذهنية عند التراثيين: كالحفظ والإستدعاء والصيانة والتذكر والنسيان، مع التعشيق المستمر للمؤلف بين المتوازيات اللصيقة بين التراث الإسلامي من طرف وعلم النفس المعرفي المعاصر من طرف آخر.

* ويتخصص الباب السادس في نظرية التعلم في التراث الإسلامي ليعالج نظريات التعلم الترابطي والمعرفي وعمليات الحدس والإلهام كما جاءت عليها كتب التراث، مبيناً - المؤلف - الفروق بين التراث والنظريات المعاصرة التي يعزوها إلى الاختلاف في المصادر الفكرية بين الفريقين.

* ويكون الذكاء من حصة الباب السابع ماراً بتطور دراسات الذكاء في التراث الإسلامي عبر إسهامات الجاحظ وأحم بن نعمان وسهل بن علي البغدادي وابن حبيب.

إلا أن الباب قد ركز كثيراً ومطولاً وبصورة رئيسة على ابن الجوزي البغدادي الذي يعتبره المؤلف (واعتباره صحيح بكل تأكيد) أنه قدم نظرية متكاملة عن الذكاء شملت تعريف مفهوم الذكاء، ثم قدراته ومحدداته، وفيزيولوجيته. وكحال بقية أبواب الكتاب، فإن المؤلف عقد المقارنات والمفارقات بين نظرية الذكاء لابن الجوزي والمحدثين التي يعزوها المؤلف إلى الاختلافات الثقافية.

* والباب الثامن يتخصص في الصحة النفسية حيث جاء الباب (في فصلين) على:

- الصحة النفسية عند (ابن زيد البلخي) وتعريفه للصحة النفسية ومفهومه لمنشأ الأعراض النفسية وطرق تدبيرها بالإرشاد النفسي مع مقارنة موجزة لما كتبه ابن مسكويه في هذا المجال.
- إضطرابات الذهان وصيدلتها النفسية في كتاب (القانون في الطب) لابن سينا:

- المالنخوليا (ما يعرف حالياً بالإكتئاب)، أسبابها، أنواعها، أعراضها.
- الصبارى (علامة ابتداء المالنخوليا) أو السوداء المحترقة في الدماغ كما وردت عند ابن سينا.
- المانيا (الهوس) وداء العشق (التركيز على المعشوق بدرجة وسواسية).

* أما الباب التاسع والأخير الذي جاء في أربعة فصول فقد تخصص في:

1. علم نفس مُدَّيْن، حيث عالج المؤلف فيه جدلية الأصالة والتقليد في علم نفس التراث مبيناً الإسهامات اليونانية مع الموضوعية العالية للعلماء المسلمين في الرجوع إلى المصادر.
2. التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر، حيث ذكر المؤلف كيف كان علم النفس واحداً من معابر الثقافة العربية الإسلامية للعالم الغربي،

وكيف كانت إسهامات التراث الإسلامي النفسية مدخلاً وأساساً لتطور علم النفس في الفكر الغربي.

3. تأصيل علم النفس في العالم العربي الإسلامي حيث ناقشها المؤلف كقضية لها مسوغاتها (لماذا التأصيل) من ناحية، وإمكانية اعتبار التراث واحداً من مواردها من ناحية ثانية. كما ناقش الفصل التغيرات المتوقعة في أبحاث علم النفس في العالمين العربي والإسلامي: لو تم التحول من النموذج العلماني إلى الإسلامي وعن مدى الصلة المتوقعة لاحقاً بين العلمين (علم النفس الإسلامي وعلم النفس المعاصر) فيما لو تم مثل هذا التحول.
4. ماهية الإنسان حيث استفاض المؤلف في المكونات الجبرية والإختيارية للإنسان والشواهد العلمية المحدثة عن صحة التصور الثنائي للإنسان (نتائج بحوث حديثة عن الدماغ والجهاز العصبي Eecles) والاتجاهات النظرية الجديدة في علم النفس (ظاهرة الوعي الإنساني، الخصائص الروحية للإنسان).

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

علم النفس في التراث الإسلامي، أسلمة علم النفس، مفاهيم نفسية رئيسة في التراث، بين التراث والمعاصرة (دراسة نفسية مقارنة في الصحة النفسية)

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- ما نحتاجه في مجال أسلمة علم النفس هو قراءة معاصرة، أو بعين نفسية معاصرة، لما كتب في التراث الإسلامي من مفاهيم وطروحات نفسية. مع اعترافنا جميعاً بأن علماء التراث الإسلامي ما كانوا علماء نفس حيث لم يكن هناك علم نفس أصلاً.
- والمؤلف القيم الذي أوجز في الصفحات القليلة هذه كان رائعاً في

ترتيب أبواب وفصول كتابه، فالذي يقرأ فهرسة الكتاب يجد أن العناوين الرئيسة لتلك الأبواب هي تقريباً ذات الأبواب أو الفصول الرئيسة التي يأتي عليها أي كتاب (غربي) في مدخل علم النفس.

- كما كانت هناك مزاوجة مستمرة بين التراث الإسلامي النفسي وعلم النفس المعاصر في كل فصول الكتاب وعقد المقارنات والمقاربات: اختلافاً وتشابهاً، مع إحقاق الأسبقية العلمية لعلماء التراث الإسلامي من جهة، وإبراز الاختلافات البيئية والثقافية والزمنية بينهما من جهة ثانية .
- يمكن أن يكون كتاب د. الزبير طه تحت عنوان «المدخل إلى علم النفس الإسلامي» لو جاءت عليه بعض التحويرات وأدخلت له بعض المفاهيم أو العناوين الأخرى.

❑ ❑ ❑

obeikandl.com